الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

ثلاثة لا ينظر الله إليهم: صفقة خاسرة مع الله تعالى

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
University of Victoria London - UK
AMIEE American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

لو جلسنا مع أنفسنا في لحظة صدق وصفاء، وتساءلنا بكلّ صدق وشفافيّة:

ما الذي يمكن أنْ يحرمنا من نظرة اللّٰه إلينا؟ وأيّ فعل يستطيع أنْ يقف حاجزاً بيننا وبين رحمة خالقنا؟ وهل يمكن لنا أنْ نصل إلى نقطة نصبح فيها منقطعين عن مصدر الرحمة والنور؟

هنا يأتي صدى حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: "ثلاثة لا ينظر اللّٰه إليهم يوم القيامة"، فهنا جوهر الإجابة عن تساؤلاتنا، وهنا ذكر لما يجعلنا نقع في دائرة الحرمان العظيم، وتوضيح للطرق التي قد تنتهي بنا لهكذا مصير والعياذ باللّٰه، فماذا لو كنّا أحدهم؟ ما هي خياراتنا اليوميّة، وأفعالنا الاعتياديّة، وكلماتنا البسيطة، التي لا نلقي لها بالاً ولكنّها تلقي بنا بعيداً عن رحمة اللّٰه شيئاً فشيئاً؟

والأدهى والأمرّ من ذلك كلّه، كيف لنا نحن البشر أنْ ننسى من أحبّنا أكثر من نفسه؟ ونتنكّر لفطرتنا؟ ونتخلّى عن كرامتنا وشرفنا؟ كيف لنا أنْ نعقد ببساطة صفقة خاسرة مع اللّٰه بما نقوم به من أفعال؟كيف تجرأنّا على استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، واستبدال المؤقّت بالأبديّ، والباطل بالحقّ، والظلام بالنّور؟

فهذه التساؤلات وغيرها الكثير الكثير، تعدّ بمثابة جرس إنذار يدقّ في أعماق كلّ نفس بشرية، فيذكّرها بأنّ هناك خطوطاً حمراء في الحياة، ومن تجاوزها وجد نفسه في المكان الذي لا يريد أنْ يكون فيه، وهو مكان الحرمان من أعظم نعمة يمكن أنْ تنالها الروح، رحمة اللّٰه وعفوه....

ففي قاعة عدالة كونيّة لا تحدّها أيّة جدران، سيقف ثلاثة أشخاص في صمت مطبق...فالأول ينظر يمنة ويسرة، والثاني يحدّق أمامه فلا يرى شيئاً من هول ما هو فيه من خوف، والثالث يمدّ يده نحو النور فلا تصل إليه أشعته، وسيكونون محاطين بملايين الأرواح التي تجلّى النّور الإلهي عليها ليغشاها، بينما هم يقفون في دوائر من الظلّ، وي ْكأنّ النّور يمرّ من حولهم دون أنْ يمسّ قلوبهم.....

فها هو الأوّل يحاول أنْ يرفع رأسه، إلاّ أنّ ثقل ذكريات الجحود يسحبه إلى الأسفل... فهو قد جحد بفضل أقرب النّاس إليه، وعقّ بهما، فهو العاقّ بوالديه، القاطع لجذور الروحيّة، فالوالدان هما أوّل مظهر من مظاهر الرحمة الإلهيّة في حياة الإنسان، فهما من احتضناه ضعيفاً، وربّياه صغيراً، وسهرا على راحته، وضحّيا من أجل سعادته، فالعقوق ليس مجرّد سوء تعامل أو إهمال، إنّما هو قطع للجذور الروحيّة التي تربط الإنسان بأصله ومنبعه، فهو إنكار للجميل، وطمس للفطرة، وتمرّد على النظام الأخلاقي الذي وضعه اللّٰه في الكون، فعندما يعقّ الإنسان والديه، فإنّه يقطع الخيط الرفيع الذي يربطه بالرحمة الإلهيّة، لأنّ اللّٰه جعل رضاه مقروناً برضا الوالدين، وغضبه مقروناً بغضبهما، فهو يختار طريق الجحود على طريق الامتنان، وطريق القسوة على طريق الرحمة....

والثاني يلوّح بيديه في الهواء، باحثاً عن هويّة ضاعت في متاهات التنكّر للذّات، وهذا الصّنف هو المرأة المسترجلة، التي خرجت عن فطرتها، وتشبّهت بالرجال في سلوكها وهيئتها، متنكّرة لطبيعتها الأنثويّة التي كرّمها اللّٰه بها، وهذا ليس انتقاصاً من قدر المرأة، بل هو تأكيد على أنّ لكلّ من الجنسين دوره المتميّز ومكانته الخاصّة في النظام الكوني، فالاسترجال هنا لا يعني القوّة أو الشجاعة أو الاستقلاليّة، فهذه صفات محمودة في الجنسين على حدّ سواء، إنّما المقصود هو التنكّر للهويّة الأنثويّة والسعي لمحو الفروقات التي وضعها اللّٰه حكمة وتدبيراً، فالمرأة المسترجلة تعيش في صراع دائم مع فطرتها، تحاول أنْ تكون ما لم تُخلق له، وفي هذا الصراع تفقد سكينة النفس وطمأنينة القلب، فهي تبحث عن هويتها في المكان الخطأ، وتسعى وراء سراب يظنّه الإنسان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً....

أمّا الثالث فيصرخ بصوت لا يسمعه أحد، لأنّه أضاع حقّ الصّراخ حينما سكت عمّا يجب أنْ يُصرخ من أجله، وهذا هو الديّوث، الذي دمّر بصمته حرمات البيوت، فاستمرأ الفاحشة وقبلها في أهله، وفقد معنى الغيرة عليهم، وهذا يمثّل انهياراً كاملاً في البناء الأخلاقيّ والقيميّ للإنسان، فالغيرة على العرض والشرف من أعمق الغرائز الإنسانيّة وأنبلها، والديّوث يفرّط في أمانة عظيمة وُضعت بين يديه، وهي حماية حرمة البيت وصون كرامة الأسرة، فهو يستبدل بالشرف المهانة، وبالعزّة الذلّ، وبالكرامة الهوان، وليس العجب في أنْ يُحرم مثل هذا الإنسان من النظرة الإلهيّة، فقد حرم نفسه من أجمل ما في الإنسانيّة وهو حسّ الغيرة والحماية، فهو يعيش في عالم مقلوب، حيث الفضيلة رذيلة، والعار شرف، والهوان عزّة...

فهؤلاء الثلاثة اختاروا ذات يوم طرقاً ظنّوها مختصرة نحو السعادة، فإذا بها دروب متاهة أوصلتهم إلى الحرمان من نظرة الرضا من الخالق العظيم، وهذه النظرة الإلهيّة ليست مجرّد إدراك بصري، إنّما هي رمز للرحمة والقبول والمغفرة، فهي النور الذي يشعّ على القلوب المؤمنة، والسكينة التي تملأ الأرواح الطاهرة، والحرمان من هذه النظرة يعني الوقوع في ظلمات الروح، والعيش في عالم منقطع عن مصدر النور الحقيقي، فهذا ليس مجرّد عقاب، إنّما نتيجة طبيعية لاختيارات الإنسان وأفعاله التي جعلته يبتعد عن الفطرة السليمة والمسار القويم....

فالناظر في هذه الأصناف الثلاثة يجد خيطاً مشتركاً يربط بينها، وهو فقدان البوصلة الأخلاقيّة والانحراف عن الفطرة السليمة، فكلّ واحد منهم اختار طريقاً يتعارض والنظام الأخلاقيّ والروحيّ الذي وضعه اللّٰه في الكون، فالعاقّ نسي أصله ومنبعه، والمسترجلة تنكّرت لهويتها وطبيعتها، والديّوث تخلّى عن شرفه وكرامته، فباتوا كلّهم في صراع مع الفطرة، وفي محاولة للسباحة ضدّ التيار، في رحلة عبثيّة نحو المجهول.

فضلاً عن كونهم ثلاثتهم قد عقدوا صفقة خاسرة مع اللّٰه، في حياتهم قبل آخرتهم، فالعاقّ ظنّ أنّه يحقّق استقلاليّته بالتنكّر لوالديه، والمسترجلة ظنّت أنّها تحقّق تحرّرها بإنكار أنوثتها، والديّوث ظنّ أنّه يحقّق راحته بالتفريط في كرامته، ولكنّ حقيقة ما حقّقوه هو الضياع والخسران، فقد فقدوا أنفسهم في متاهات الحياة، وحُرموا من أعظم نعمة يمكن أنْ ينالها الإنسان وهي القرب من اللّٰه ونيل رضاه....

ولكن هل أغلق الباب أمام هؤلاء للتوبة؟

لا، لم يغلق، فلا يزال هناك مجال للرّجوع عن الاستمراريّة في هذا الطريق والوصول إلى ذاك المصير، فرحمة اللّٰه أوسع من أنْ تُحدّ بحدود، وبابه مفتوح أمام كلّ تائب منيب، فمن وقع في هذه الأوصاف ثم تاب وأصلح وعاد إلى جادّة الصّواب، فإنّ اللّٰه يقبل توبته ويغفر ذنبه، فالتوبة هنا لا تعني مجرّد النّدم والاستغفار، إنّما تعني العودة الكاملة إلى الفطرة والمسار الصحيح...

فالعاقّ وجب عليه أنْ يعود إلى برّ والديه..

والمسترجلة عليها أنْ تحتضن أنوثتها وتفخر بها...

والديّوث عليه أنْ يستعيد غيرته وكرامته....

ختاماً،

فقد جاء هذا الحديث النبويّ: (ثلاثٌ لا يدخلون الجنةَ ولا ينظرُ اللّهُ إليهم يومَ القيامةِ؛ العاقُّ والدَيه والمرأةُ المترجّلةُ المتشبهةُ بالرجالِ والديوثُ)، كتحذير وإنذار مخيف، ودليل طريق ومصباح هداية في الآن ذاته، جاء ليضع أمامنا خريطة واضحة للطرق التي تؤدّي إلى الضياع لنتجنّبها ونسلك الطرق التي تؤدّي إلى النجاة والفلاح، فالحياة الروحيّة المتوازنة تبدأ بالتّصالح مع الذّات والفطرة، واحترام النظام الأخلاقيّ الذي وضعه اللّه، والسعيّ للعيش في انسجام مع هذا النظام لا في صراع معه....

فالإنسان الذي يبرّ والديه، ويحترم هويته الجنسيّة، ويغار على عرضه وشرفه، هو إنسان يعيش في سلام مع نفسه ومع ربّه ومع الكون من حوله، فهو بذلك يستحقّ النظرة الإلهيّة الكريمة، نظرة الرضا والقبول والمغفرة....

فلنحرص جميعاً على أنْ نكون من أهل هذه النظرة الكريمة، ولنجعل من حياتنا صفقة رابحة مع اللّه تعالى، صفقة نستبدل فيها الدائم بالفاني، والأبدي بالمؤقّت، والحقيقيّ بالوهميّ...

اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة، وأظلّنا تحت ظلّك يوم لا ظلّ إلا ظلّك...

اللهم اجعلنا من الذين تظلهم في ظلك يوم القيامة، واكتبنا في عبادك الصالحين المتقين...

اللهم أظلنا برحمتك، واحفظنا بعينك التي لا تنام، واجعلنا من المقربين إليك....

اللهم آمين يا رب العالمين....